قضايا مثارة

حول المازني وأدبه

بشير الهاشمي

نقف عند الكاتب والأديب العربي ابراهيم عبد القادر المازني، إزاء اشكالية حقيقية من إشكاليات الدراسة والنقد الأدبي المعاصر، تتكشّف عن مظهر من مظاهر المحدودية والقصور، في سياق العديد من الكتابات والمتابعات الدراسية التي كتبت حوله أو تناولت جوانب من انتاجاته وآثاره الأدبية والفكرية.

فمن الملاحظ بحق أن المازني لم ينل حظّه الوافر والموسّع من البحث والاستقصاء الدراسي، سواء فيما يتصل بسيرة حياته على مختلف مراحلها، أو بتقييم أدبه وانتاجه الفكري، ورصد موقعه واستشراف دوره الريادي في مسار الحركة الأدبية الحديثة في وطننا العربي.

ولكي نتفهم ذلك تماماً، فيكفي أن نلقي بنظرة خاطفة على عمل ببليوغرافي صادر حوله، لنستوضح أن عدد الكتب التي ألفت وكتبت عنه، لا تتجاوز السبعة، ولعل الكتاب السابع قد بقي مخطوطاً حتى فترة قريبة[1][1]. وإذا ما استثنينا مجموعة من الكتابات المتفرقة والموزعة بين ثنايا الكتاب السابع قد بقي مخطوطاً حتى فترة قريبة[1]. وإذا المقالات المبثوثة داخل أضابير الصحف والمجلات، وهذه الكتابات الأخيرة في الأكثر، تأتي صياغاتها على منحى استعراضي مسطح ومبتسر، وتتصل بمناسبة ما، مثل ذكرى وفاته أو تنساق وراء تلميح عابر حول ظاهرة أو دلالة أدبية لها صلة بالمازني، مثل السخرية والفكاهة والطرافة أو المواقف الصحفية المحرجة، وغيرها من هذا القبيل، والتي لا تحسب بالضرورة في سياق العمل الدراسي الجاد والبحث الاستقصائي الموضوعي في موازينه ومقاييساته المتعارف عليها.

ولا أقصد بهذا المعنى، انه لا توجد دراسات وأبحاث جادة ورصينة تناولت المازني أو جوانب من أدبه وشخصيته، وإنما هي قليلة ومحدودة جداً، ولا تعطي الرجل حقه في التوسع الدراسي المسهب والتمعن العميق والبعيد المدى في تحليل إنتاجه

ومما يلفت النظر من ناحية أخرى، أن معظم مؤلفاته وآثاره لم يجر إعادة طباعتها مرة أخرى مثل ما نرى ذلك عند مؤلفين عرب آخرين كطه حسين والعقاد، ولم تبادر أية جهة أو هيئة إلى جمع شتات انتاجه الموزّع والغزير، المنشور في مختلف الصحف والمجلات، وعلى أهمية هذا الانتاج وضرورة إعادة ترتيبه وتبويبه ونشره ـ وثائقياً على الأقل ـ للاستفادة به.. ولا أدري لمن أتوجه بمثل هذا التساؤل؟

وأعود إلى تلك الكتابات النقدية التي كتبت حوله فأقول:

لعل الرجل كان مظلوماً ووقع عليه الإجحاف في بعض من المواقف النقدية المتسمة بالتعسّف واستصدار الأحكام الإجرائية النهائية والحاسمة، والتي تأتي أشبه بالأحكام القضائية، وليس التقييم الدراسي والنقدي القابل عادة للمراجعة وإعادة النظر وتقليب الرأي والفكر.

وكان مظلوماً أيضاً من بعض أصدقائه ومعاصريه من الأدباء والكتّاب والصحفيين، والحقيقة أن الكثير من الجوانب البالغة الأهمية والحساسية في حياته، لم تعالج بعد ولم تستوضح أبعادها وزواياها الخفية والدقيقة، وباستثناء كتاب واحد اعتبره من الناحية الوثائقية على الأكثر من أهم ما كتب من المازني ولما يتضمنه من أفكار دراسية سباقة حول المازني وعلى سياق تجميعي واستعراضي عام وهو كتاب (أدب المازني)(٢) وبالرغم من أنه يلامس الكثير من الجوانب لمساً خفيفاً وعابراً فقد أحسنت الدكتورة ـ نعمات أحمد فؤاد ـ في كتابته، وإننا لا نكاد نجد كتاباً آخر جامعاً لهذه الجوانب ومتصدياً لها بالدراسة والمتابعة الشمولية، حتى كتاب الدكتور محمد مندور الصغير حول ـ إبراهيم المازني ـ جاء مقتضباً ومختصراً ومحدوداً، ولا يشبع نهم الدارس لأدب هذا الكاتب الكبير(٣).

وإذا كانت الخلافات والخصومات الحادة والعنيفة بين الأديبين إبراهيم المازني وعبدالرحمن شكري قد برزت في مجمل معالمها، وتوضحت دوافعها ومسبباتها التي نشرت على الناس وبدت جلية أمامهم ومنها ما أوضحه المازني بنفسه وبروحه الإنسانية الشفافة، فإن العلاقة بين المازني من ناحية والأديب عباس العقاد من ناحية أخرى ظلت غير واضحة، وباستثناء ما نعرفه من أنه كانت تربطهما مع بداية دخولهما إلى حلبة الكتابة والنشر، صداقة حميمة وتعاون مشترك، ثم حصل بينهما ما أوجب الاختلاف والتباعد، فإننا بشكل أساسي لا نعرف مدى المؤثر الذي أحدثه ذلك التصدّع بينهما، في نفسية المازني، ولا حجم الدور الذي لعبه العقاد في حياة المازني بداية ونهاية، وأيضاً المنعكس الايجابي والسلبي لهذا المؤثر، ولم تحاول أي دراسة معالجة هذه الجوانب.

ولا أريد هنا أن أحمل العقاد مسؤولية نهاية المازني، وما اتسم به في آخر حياته من مواقف فكرية سلبية تجاه الحياة الأدبية، وفي معترك الصراع الفكري الذي كان المازني أحد فرسانه الكبار، ولكن الذي أقصده أن العقاد بمقاييس قيمته ومكانته الأدبية والفكرية، يمثل بالضرورة وضعاً مؤثراً على المازني بشكل مباشر، وله دوره وبصماته الفاعلة والمنعكسة على حياته وعلى متجهات مساره الفكري وما اتخذه من مواقف.

ومن الغريب أن ينتبه إلى مثل هذا الجانب المؤثر من العقاد على المازني، وأن يحاول توضيح بعض دلالاته، كاتب صحفي غير معروف على الساحة الأدبية والصحفية، فيعطي لمثل هذه المسألة تدوينات عابرة سوف يجري الإشارة إليها في سياق هذه المتابعة الدراسية.

وإذا كان المازني مظلوماً في بعض المواقف النقدية وفي محدودية المعالجات الدراسية، التي كتبت عن أدبه، فالحقيقة الأخرى أن المازني قد ظلم نفسه أيضاً وأساء إليها وأضر أحياناً بسمعته ومكانته الأدبية، تلك هي قضية السرقات الأدبية المحسوبة عليه، والتي تظل ملتصقة به بالرغم من المكانة الأدبية العالية والمتميزة التي يحتلها في أدبنا المعاصر، وبالرغم من المبررات المتصلة بها، فمن الصعب على الدارس أن يتجاهل ذلك المؤثر السلبي الذي أحدثه المازني وجنى به على نفسه، وعلى الآخرين، وهي قضية أخرى لم تعالج بعد هي الأخرى.

وقد يكون من المفيد بداية، الحديث عن ظلم الآخرين له، وجنايتهم عليه في مواقف وأحكام نقدية محسوبة عليهم، قبل أن ننتقل بالحديث عن ظلم نفسه لنفسه.

بتاريخ ١٩٥٤/٢/٧ م ظهرت مقالة نقدية مطولة في صحيفة (المصري) في الصفحة الأدبية الأخيرة بعنوان (الهارب من الحياة) وهي بقلم الدكتور عبد العظيم أنيس، والذي عرفنا فيما بعد أنه عالم رياضيات وقد اقتحم ميدان الكتابة الأدبية والنقدية واشترك مع زميل له في القيام والإسهام بمسح نقدي عريض لإنتاج عدد من كبار الأدباء والكتّاب العرب، وتحت شعار الدعوة والتبشير بمنظور جديد في النقد، وأقدما سنة ١٩٥٥ م على جمع انتاجهما معاً

وإصداره في كتاب واحد مشترك بعنوان (في الثقافة المصرية) وكان من ضمن المواد المنشورة فيه مقال ـ الهارب من الحياة ـ المشار إليه سابقاً، وهو ما يعنينا هنا لاتصاله المباشر بكاتبنا المازني وأدبه.

ومن المفترض أن هذه المقالة، وبحسب التخصيص الظاهر والمسجل على غلاف الكتاب وفي صفحته الأولى، تفيد بأنها دراسة في ـ أدب المازني ـ بصفة شمولية وعامة غير أن صاحب المقالة يسارع إلى وضعنا أمام حكم ثابت ومسبق يقول فيه.. (.. إن المازني نسيج فريد من الكتاب المصريين المشهورين، لأن معظم الآخرين كطه حسين والحكيم، قد تطور أدبهم مع الزمن، وتميزوا في مراحل زمنية مختلفة، بمميزات متباينة غير متسقة، فلا يسهل أن نفهم أدبهم، إلا في ضوء فهم متطور لمراحل حياتهم، أما المازني فقد كان مخلصاً طول حياته لفلسفة واحدة يتكامل فيها كل إنتاجه الأدبي من شعر ومقالة وقصة، هذه الفلسفة هي الهرب من الحياة، ونحن نستطيع أن نلقي الكثير من الضوء على هذا الكلام بأمثلة مختلفة من شعر المازني ونثره. ولكني لا أعرف مثلاً أوضح ولا أسطع من قصته المشهورة ـ إبراهيم الكاتب)[٤].

وأول ما يتبادر إلينا هو الإخلال الموضوعي بتلك الإشارة المبدئية المثبتة في أول الكتاب، والتي تفيد ـ كما أوضحت ـ إننا أمام دراسة عامة لأدب المازني فنكتشف أن الدراسة تقتصر وتدور حول رواية ـ إبراهيم الكاتب ـ للمازني، وأن الناقد قد جعل منطلق الدراسة هذه حول الرواية إلى حكم شمولي وتقييم نقدي كامل لأدب المازني ووضع القارىء مسبقاً تحت طائلة قرار نهائي حتى قبل أن يبادر إلى إيراد أية حيثيات دراسية ونقدية محللة ومعللة وشارحة لوجهة نظره، بل إن اندفاعه وحماسه ـ كما نلاحظ ـ لرأيه قد حدا به إلى وضع العنوان كدلالة لذلك الرأي، وسعى بعد ذلك إلى صياغة المقالة في سياق الأحكام النقدية ـ ليس الجاهزة فحسب ـ وإنما مما يوضع تحت معيار الرأي الذي لا يختلف عليه اثنان، وبالتالي يتوجب على القارىء، أن يقتنع ـ هكذا ـ وبحسب رأي الناقد أن فلسفة المازني هي الهروب من الحياة!

وكان في إمكان الناقد ـ بشيء من التجاوز ـ أن يكون أقرب إلى التقييم الموضوعي والدراسي، لو اقتصر حكمه المسبق هذا، على تلك الرواية التي أشار إليها ولم يعطه صفة التعميم المطلق والحاسم على كل آثار المازني، وليقفل عليه داخل تلك الخانة تحت تسمية النقد المنهجي.

ولعل من الطريف هنا أن نشير أولاً إلى ما كان بين المازني والفلسفة من نفور وجفاء، وقد أشار إليه هو نفسه في الكثير من كتاباته وأشار إليه أيضاً بعض الكتّاب الآخرين[٥] فأية سخرية أن تلصق به مثل هذه الفلسفة، وثانياً لأن مثل هذا الحكم المسبق والمطلق يأتي أشبه بإلصاق التهمة تخميناً وترجيحاً، بدون أسانيد ثابتة ومبينة بالأدلة والقرائن.

ولعل الدلالة الموضوعية الأقرب إلى الصحة والموضوعية تشير إلى أن أدب المازني في أوسع تفاصيله وأخص خصائصه هو بمثابة النقيض من فلسفة الهروب من الحياة، بل هو يقتحمها أحياناً، وفي أحيان أخرى يداورها ويتحايل عليها، بأسلوبه الخاص ونظرته الزئبقية، أسلوب السخرية والاستخفاف بالحياة وعدم الاكتراث بها، والتلاعب عليها بالتناغم اللفظي المندرج بأحاسيس بالغة العمق والشفافية وتصورات فنية إبداعية، تأتي أحياناً على هيئة مقالة قصصية، وأحياناً قصة قائمة بذاتها وبخطيات الكتابة القصصية المتعارف عليها في وقت المازني، وفي مواقع أخرى تأتي أشبه بالسرد الذاتي لواقعة معينة.

ولا يمكن لمثل هذه المعاني في جملتها وفي مطلق أبعادها ومحور مدارها الحقيقي والأصيل، أن تمثل هروباً من الحياة، بمقدار ما تعني اتخاذ موقف منها وفارق كبير بين من يهرب، ومن يكون له موقف، مهما كان هذا الموقف وبما تكوّن له من جوانب سلبية ذاتية، ولكنه موقف غير هروبي، وإنما هو موقف يقولبه المازني بخصوصيته الفنية وبأدواته الابتكارية التي يحركها في حالات كثيرة بمزاجية فنية مفرطة، ذلك أن المازني كاتب فنان بالدرجة الأولى، يتميز بنظرة دقيقة الحساسية وبمؤثرات ذاتية يدور حولها، ويستلهم منها ويترصدها ويصنع منها قوالبه ومكوناته

القصصيـة، حتى يمكنك أن تقول إن معظم كتابات المازني ـ القصصية أو ذات المتجه القصصي ـ يستنبطها من تجاربه الخاصة، ومن الممكن أن تكون كتابات المازني متمحورة حول ذاته وبإيقاعات متناغمة ومتباينة مع مختلف المعالم والرؤى الأخرى، التي ينفعل بها ويتفاعل معها، وقد تساهم مجموعة من العوامل الشخصية والحياتية في تضخيم هذا المؤثر الذاتي عند المازني، فيتعايش معه بقلمه وفكره وإحساسه وداخل تيار مضخم الإحساس بأنه ـ ذاتياً ـ مرتكز العالم، وأن العالم كله يصب في ذاته، وتلك هي نرجسية الفنان وهي قضية أخرى كما يمكن أن يقال ومن الممكن أن تعالج في إطار التحليل النفسي للمازني وأدبه، وقد أعطى جورج طرابيشي لبعض هذه الجوانب النفسية عناية دقيقة ومركزة في دراسة له حول المازني اعتبرها من أهم الكتابات التي كتبت ـ تحليلياً ـ عنه[٦].

ومن الجدير بالملاحظة ـ وهو ما يدهش بحق ـ أن المازني كان من أسبق الأدباء العرب المعاصرين الذين تحدثوا كثيراً عن الخاصية الاجتماعية للأدب، وعن الدور الذي يساهم به في خدمة الحياة هكذا بأوضح العبارة، وكان من ضمن ذلك ما تحدث به في محاضرة له ألقاها في بغداد أثناء زيارة له في أواخر سنة ١٩٤٤، وكانت بعنوان (غاية الأدب) نأخذ منها المقتطفات التالية:

(. . كل ما أعرفه أن الأدب فرع من شجرة الحياة فما يستطيع المرء أن يتصور شيئاً خارج الحياة، أو منقطع الصلة بها، أو غير جار مجراها على سنتها، فإذا كانت للأدب غاية، فهي لا بد أن تكون لغايتها).

(. . إن سعة الحياة تأبى الوقوف أو النكوص وقانونها الصارم يقضي بأن يظل تيارها جارياً، لا يصده شيء، فإذا عوقه معوق في موضع مال عنه ودار حوله وذهب ينحدر في مجرى آخر. . وهكذا إلى الأبد. .).

ويمضي المازني في محاضرته إلى تركيز محدد حول وظيفة الأدب والأديب، داخل المجتمع فيقول:

(. . إن الأديب لا يستطيع أن يعيش بمعزل عن زمنه، وأن وظيفته الأولى أن يكون هو اللسان المعبر عن الحياة، ولن يتأتى له ذلك إلا إذا كان يحيا هذه الحياة بعقله وقلبه، والأديب في الواقع مرآة تنعكس في صقالها صورة الحياة، فهو يرى زمنه، ولا جناح عليه إذا هو ذهب مذهباً ما في باب السياسة والاجتماع. .)[٧].

ولا أرى أنه من الانصاف في الرأي والتقييم أن يوضع مثل هذا الكاتب تحت تقنين نقدي مغلق وبواجهة تفيد بأن خطوط إنتاجه كلها تتجمع عند فلسفة الهروب من الحياة، ذلك أن حيثيات هذا الأدب هي على النقيض من ذلك واعتقد أن الصور القصصية التي كتبها ونشرها في كتبه مثل ـ خيوط العنكبوت وفي الطريق، وصندوق الدنيا لا تعبر في واقع مراميها عن ذلك المتجه الفلسفي ولا تتناسب معه.

وقد تكون ثمة جوانب سلبية في نطاق المعالجة والعرض الفني لم يكن في مثل وضعية المازني ومرحلته أن يتعداها، وقد تكون هناك نزعات تشاؤمية وموحيات عدمية و (ألا جدوى من الحياة) انزلق إليها المازني تحت مؤثرات ذاتية خاصة، وبالتالي تأخذ مظهر السخرية والاستخفاف بالحياة، ولكنها لا تنتهي في معظمها عند دلالات الهروب من الحياة، بل إننا نجده حتى في أقاصيصه التي يتحدث فيها عن شظف عيشه ومرارة معاناته، وحتى في بعض المواقف القصصية التي يوحي إلى قارئه فيها بأنه بطلها وأنها أحداث ووقائع خاصة به، مثل ما أورده في كتابيه ـ من النافذة ـ و ـ عود على بدء ـ نجد من الواضح تعلقه بالحياة حتى في حلمه المزيف والمجنح. ونستشف شعوره بالمرارة لأنه لم ينل طيب العيش ورغده، فأداة التعويض عنده هنا، هي تلك السخرية المبطنة وذلك الاستخفاف الذكي والحاد من الحياة، وهو كما قلت سابقاً يحسب عليه كموقف، ولا يمكن لمثل هذا الموقف أن ينبىء عن فلسفة الهروب من الحياة، بأكثر مما يشير إلى تعمق الكاتب في فهم الحياة واتخاذه موقفاً منها.

ولست معنياً هنا بالرد على ذلك النقد الذي انتهت زوبعته وتلاشت ريحه، ولم يبق منه غير ذكرى تذكر عند الإشارة إلى استغلال النقد كظاهرة من ظواهر الظلم والعسف الثقافي ـ إن صح التعبير ـ من جانب ناقد ـ كما يقول عنه أحد الكتّاب العرب (. . ظهر ليلقي أحكامه على أدباء

العصر ثم اختفى وطلق الأدب والنقد، وكأن الأدب والنقد تسلية يمكن أن تزجى بعض الوقت، وليست وجوداً كاملاً ومعاناة دائمة لا تغني)[٨].

ولا أريد أن أطيل كثيراً حول هذا الموقف النقدي بأكثر من الاعتبار به كنوع من ذلك الظلم الذي أصاب المازني ولحق أدبه ـ والذي يتوجب اليوم وضعه في موضعه. . وقد انتهى ذلك الناقد. . وبقي المازني، وقد يكون من العزاء للمازني، أن ما كتبه ذلك الناقد هو بحق كما يقول ـ فاروق خورشيد ـ

(. . كلام أغفله من يشتغلون بالأدب ويكرسون له حياتهم، عزاء له أن الأستاذ أنيس واحد من دنيا أخرى غير دنيا الأدب، وأنه ترك هذه الدنيا إلى دنيا السياسة أو الرياضة، وان كلمات المازني نفسه، مازالت في هذا الجيل هي كلمات الأدب. . وانه واحد من جيل عانى كل آلام عصره ولم يهرب منها، وإنما واجهها بكل الصدق والصراحة والسخرية)[٩].

وهناك جناية أخرى أصابت المازني ظلماً بتعبيراتها السطحية والتقليدية، وهي لا تتم عن عمق ورسوخ في فهم الأبعاد والدلالات بموضوعيتها ومؤثرها المترابط معها، فعلى سبيل المثال كان المازني من أسبق الأدباء والكتّاب العرب المعاصرين في الكتابة عن الوعي القومي العربي وفي محاولة تحليل مواصفات ـ القومية العربية ـ وحتمية الانتماء إليها وضرورة الدعوة إليها وقد كتب في هذا الشأن مجموعة من المقالات فيأتي دارس معاصر ليضع مثل هذه المقالات وبما فيها من معايير ودلالات في خانة الطرافة، أو الشيء الطريف ـ هكذا ـ في أدب المازني فيقول:

(. . ولعل من الطريف أنه كان من السابقين إلى الإيمان بفكرة جامعة الدول العربية. . الخ)[١٠]. فهذا الدارس والباحث لا يرى في مثل هذه المسألة غير جانب الطرافة ـ النادرة ـ وفي سياق وصف الأسلوب الساخر والخفيف عند المازني بحسب قوله.

غير ان الواقع الموضوعي للمسألة ليس كذلك، فالمازني الذي أخذ يتحسس عن قرب وبوعي يقظ ومبكر هبوب رياح المأساة الفلسطينية واغتصاب الأرض العربية تنبّه إلى أن التكاثف العربي المسؤول والتلاحم القومي الجاد كفيل بأن يصنع قوة في وجه الأطماع الصهيونية (. . ذلك أن مليون فلسطيني إذا أضيف إليه مليونا الشام وملايين مصر والعراق مثلاً يصبحون شيئاً له بأس يتّقى) ذلك هو رأي المازني في ذلك الوقت من سنة ١٩٣٥ م وهكذا ترى معي أنه ليس طرفة من الطرف التي يمكن أن يتفكه بها دارسٌ في معالجات مسطحة وإنما هي قضية وعي قومي تفتّح عليه المازني ونادى به في مقالات مشهورة.

وينتهي بنا مدار المعالجة حول المازني وأدبه إلى جانب آخر، ليس من شك في تمييزه بحساسية خاصة، ويصعب الولوج إليه بغير حذر دقيق وحيطة بالغة، تلك هي مسألة الصلة والمؤثر بينه وبين رفيق دربه وصاحبه عباس محمود العقاد، والدور الذي أحدثه هذا الأخير على المازني ومسار حياته.

والفكرة السائدة تنحصر في ذلك التلازم الذي جمع بينهما وربط أفكارهما ومتجهاتهما النقدية وبالدرجة التي يتبادر اسم أحدهما على الفور حين يذكر الآخر، ويعود ذلك كما هو معروف إلى تعاونهما معاً في ميادين العمل الأدبي والصحفي في بداية ظهورهما على الساحة الأدبية غير أن أحداً لم يشر إلى النتائج التي تكونت بعد حصول التباعد بينهما، وبالتالي الاختلاف في الاتجاه بين الأديبين وانتهى بهما أن يمضي كلّ منهما في طريق.

ومثل هذه المسألة بين الرجلين لم تعالج من جانب الدارسين ولم يحاول أحد استشراف أبعادها وعواملها ونتائجها على ما تمثله من قيمة ومؤثر جدير بالانتباه.

ومن المثير أن يعطي مثل هذه المسألة بعض الوقفات والتلميحات ذات الدلالة البالغة، كاتب صحفي متخصص وبعيد في مجاله عن الدراسات والكتابات الأدبية، ولعله غير معروف في الوسط الأدبي، في سياق كتاب له يتحدث فيه عن ذكرياته وانطباعاته الخاصة حول بعض الشخصيات التي عاصرها ويرى في نظره أنها شخصيات كان لها مؤثرها في المجتمع والتحولات الطارئة عليه، ومن بين هذه

الشخصيات يتحدث عن ـ عباس محمود العقاد ـ الذي خصص له الفصل الأخيرة من كتابه[١١].

يتحدث الصحفي ـ محمد السوادي ـ عن ذكرياته مع العقاد وانطباعاته حوله، ليمضي بالحديث عن العلاقة القائمة بينه وبين صديقه إبراهيم المازني، يتحدث أولاً عن الفوارق الشخصية بين الرجلين. وكيف أنه لم يستطع اكتساب صداقة العقاد لأسباب يصفها بقوة اعتداد العقاد بشخصيته وإنّه لم يظفر بغير قليل من الودّ بسبب عنايته بمقالاته اخراجاً وتصحيحاً بينما كانت علاقته مع المازني على غاية من الصفاء والود.

وبعد أن يستوضح العوامل الجامعة بين العقاد والمازني ويقول (إن القدر خالف بينهما في الخلق على هذا النحو ليعطيك من هذا التناقض الجسدي الصارخ تكاملاً غير مسبوق في تاريخ العباقرة..) يحدد مرتكزات ـ تلازم وتباعد ـ الرجلين ويصل بالتحديد إلى سنة ١٩٣٨ م إذ كان الإثنان يعملان معاً في دار صحفية واحدة، وكان التباعد قد أحدث بمؤثره بين العقاد وصاحبه (.. كانت حبال الود بينه وبين المازني قد رثّت على مر الزمن.. وكانت قصة التلازم الذي دخل التاريخ جامعاً بين الأخوين قد توارت خلف أبواب التاريخ.. وتاهت في منعطفاته.. وكانت نظرة المازني إلى شبابه مع العقاد قد اتخذت لها مساراً غير مسارها القديم..)[١٢] ومن الواضح أن مجموعة من الرواسب والمخلفات القديمة والمستحدثة قد عمقت أو ساهمت في تعميق هوة التباعد بينها[١٣] إضافة إلى الاختلاف في متجهات العمل السياسي والصحفي وقد وقف الكاتبان على طرفي نقيض.

وكان العقاد، بما له من مميزات شخصية أكثر قوة وإقداماً في التقدم إلى ميدان الصدارة في الأدب والسياسة والصحافة، وأكثر جرأة في الدفاع عن نفسه وفي السيطرة والاستحواذ على موقع بارز في ـ سماء الأولمب ـ وأحياناً كثيرة في التفرد البالغ الخصوصية في هذا الشأن.

في حين بقي المازني بعيداً، بالرغم من أهمية وقيمة نشاطه الأدبي والصحفي، يتعايش مع إحساس بالغبن وشعور بالإحباط وبعدم جدوى ما كان يرنو إليه من أهداف وغايات أدبية، كانت بمثابة المنطلق المشترك مع صديقه ورفيقه القديم ـ العقاد ـ الذي يبدو أن نرجسيته قد حدت به إلى الغلوّ في التفرد واجتناء الثمرة لوحده دون شريك، ومن الضروري أن يكون لكل هذا منعكساته الحادة على المازني وتغيير نظرته وهو يتباعد عن رفيقه القديم ويطوي صفحات الماضي المشترك معه في غضاضة يقول عنها محمد السوادي (.. كنت أحس بشيء من المرارة تجاه ذلك التاريخ يعاود المازني بين الحين والحين.. تخفيه فلسفته الساخرة وبسماته الراضية وانصرافه عن ـ أمجاد الحياة ـ انصرافاً صوفياً غير مفهوم..)[١٤] ويقول الكاتب أنه رغم صلته الوثيقة بالمازني زهاء سنوات طويلة لم يستطع أن يستوضح شيئاً من المازني في هذا الخصوص. غير أنه أمكنه أن يخمن هذا الاستنتاج وهذا التصور من مؤثرات تلك العلاقة التي دخلت في طي التاريخ.

غير أن الجانب الأكثر أهمية، هو ما يشير إليه محمد السوادي في كتابة المذكور من أن المازني قد اكتشف أخيراً و(.. بعد فوات الوقت، إنه كان كبش الفداء في معارك العقاد، وتوالت الأحداث تؤكد هذه الحقيقة الرهيبة، فغصّ بها وقنع بالصمت أو الكبت بدلاً من الثأر، ورأى أن الثورة لا بد منها بعد أن ضاق بالصمت أو بالكتب، وهو غير مهيأ للثورة على العقاد..)[١٥] وبدلاً من ذلك اندفع المازني في ثورة هادرة على نفسه فمضى في اندفاعة حادة مستنكراً شاعريته ومتنصلاً منها، ورافضاً حملاته النقدية التي سبق له أن خاضها ودان فيها بعضاً من أشهر أدباء عصره مثل شوقي وحافظ والمنفلوطي وشكري.

ولعل العقاد قد قنع راضياً بذلك الانسحاب والانزواء من صاحبه ورفيقه القديم، ومنتشياً في الوقت نفسه بنرجسية التفرد على الساحة وممتشقاً سلاح قلمه يثير به المعارك والخصومات من حوله، وبالرغم من وصول الصاحبين إلى موقفين متعارضين ومختلفين، وبما يمكن أن يتيحه هذا من إمكانية احتدام الصراع بينهما، فلم تحصل بينهما أية خصومة معلنة، ومن الواضح أن المازني قد قنع بالغنيمة عند هذا الحد مكتفياً بسخرية أحياناً وبمرارة في أحيان أخرى

بأنه يكتب (ليأكل الأولاد) ولقمة العيش هي التي تسوقه إلى ذلك. ولم يستغل أي موقف معارض ومخالف مع صاحبه ليهاجمه أو ينال منه.

ومن الغريب أن تكون هناك فرصة مواتية للمازني، كان في مستطاعه أن يهاجم العقاد فيها، ومن موقع الدفاع عن حقه المشروع ضد (خطيئة ارتكبها العقاد بشأنه ـ كما يقول السوادي ـ فقد كتب العقاد مقالاً تحدث فيه عن كتاب ـ الديوان ـ وهو الكتاب النقدي الأول والمشترك في التأليف بينهما، يقول في مستهله (.. منذ بضع سنوات نشرت كتاب الديوان، فذاع ذيوعاً لم يسبق له مثيل في مصر، ونفدت طبعة الجزء الأول في أقل من أسبوعين..)..

وهكذا دون أن يشير بأي ذكر إلى شريكه في الكتاب ـ المازني ـ وهي مخالفة غير يسيرة.. وليس من السهل المرور بها دون تعمد مقصود خاصة وأن كتابات المازني كانت تتصدر الصفحات الأولى من الكتاب.

غير أن المازني لم يحرك ساكناً، ولم يحمل نفسه مشقة أي ردّ على ذلك الإهمال، مكتفياً بتلك العبارات البالغة المرارة والمثقلة بأحاسيس الحزن والإحباط والتي ضمنها مقدمة كتابه المعروف (حصاد الهشيم) وفي مجال حديثه عن كتاب ـ الديوان ـ بالذات قال هذه الكلمات متسائلاً في مرارة:

(.. ما مصير كل هذا الذي سودت من الورق وشغلت به المطابع وصدعت به القراء؟.. إنه كله سيفنى بلا مراء فقد قضى الحظ أن يكون عصرنا عصر تمهيد.. وأن يشتغل أبناؤه بقطع الجبال التي تسد الطريق وتسوية الطريق لمن يأتون من بعدهم.. ومن الذي يذكر العمال الذين سوّوا الأرض ومهدوها ورصفوها؟.. ومن الذي يعنى بالبحث عن أسماء هؤلاء المجاهيد، الذين أدموا أيديهم في هذه الجلاميد؟.. وبعد أن تمهد الأرض وينتظم الطريق.. يأتي نفر من بعدنا ويسيرون إلى آخره.. ويقيمون على جانبيه القصور شاهقة باذخة، ويذكرون بقصورهم، وننسى نحن الذين أتاحوا لهم أن يرفعوها سامقة رائعة، والذين شغلوا بالتمهيد عن التشييد، فلندع الخلود إذن ولنسأل: كم شبراً مهدنا من الطريق؟)[١٦].

تلك هي مجموعة الخطوط البالغة الدقة والحساسية التي ربطت بين الصاحبين المازني والعقاد وهي في مجملها من ناحية أخرى قصة لا تخلو من جوانب مأساوية، جمعتهما بطرف وبطل ثالث هو عبد الرحمن شكري، إن قصة الثلاثي المازني والعقاد وشكري، لم تكتب بعد في أوضح صورها وأدق خصائصها وفي مجاهل حيثياتها وتفاصيلها، وأيضاً في عمق مؤثرها الذاتي على الأطراف الثلاثة أنفسهم قبل غيرهم.

ولعل ذكر عبد الرحمن شكري يقودنا إلى المعضلة الأخرى التي أشرت إليها في بداية الحديث. تلك هي مسألة السرقات الأدبية المحسوبة على المازني، ولعل مكمن العداء الأساسي بين المازني وشكري، يعود إلى أن عبد الرحمن شكري كان أول من اكتشف وكتب عن هذه الاقتباسات وأوضح بكامل الجلاء مصادرها ومواقعها من الآداب الأجنبية، وهو بحكم تمكنه من اللغة الإنجليزية، كان مهيأً أكثر من غيره لاكتشاف هذه الحقيقة، فكتب عنها مجلياً تفاصيلها، وبالرغم من دفاع المازني عن نفسه، وما كان يسوقه من مبررات ومعاذير، لا تشذب دفاعه فحسب وإنما تشير إلى واقعة التهمة وحقيقتها، وبالتالي إلى اعترافه بهذه الحقيقة، فالمازني قد تورط بلا شك في هذه المسألة لأسباب غير معروفة، ولعله كان يمضي في هذا الشأن تحت ستار موهوم في عدم قدرة غيره على اكتشاف هذه الحقيقة والتعرف عليها، وهي مسألة مثيرة للغرابة بحق لكاتب في مكانة المازني وقدراته الخلاقة.

وإذا كانت بعض الدراسات المعاصرة قد أولت هذه المسألة في أدب المازني شيئاً من عنايتها والالتفات إليها والاستشهاد بأمثلة مقارنة حولها[١٧] فإنه من شأن الدارسين والمختصين في مجالات الأدب المقارن استقصاء مثل هذه المسألة واستجلاؤها بكامل حيثياتها وبصورة تستهدف الموضوعية والحقيقة في هذا الخصوص. واعطاؤها ما تستحق من تمحيص واستشهادات موضحة ومبينة خدمة للحقيقة ولمصلحة العمل الدراسي.

ويبقى بعد كل ذلك، وقبله إبراهيم عبد القادر المازني، بقيمته ومكانته الأدبية البالغة الأهمية، ويظل محتفظاً بدوره

وإسهامه الريادي في تطور الحركة الأدبية العربية المعاصرة، وليس أول على ذلك من أن إنتاج المازني يحتفظ بدرجة عالية من الحظوة والإقبال لدى القراء في الوطن العربي، وكتبه اليوم من أندر الكتب تواجداً في سوق الكتاب، وأعتقد أنه آن الأوان للاعتناء بانتاجه في طبعات جديدة وكاملة.

طرابلس - الجماهيرية

---

(١) تفيد الموسوعة الصادرة حول المازني وكتاباته بأن عدد الكتب المؤلفة عنه سبعة كتب، منها مخطوطتان بدار العلوم بالقاهرة لم يتم طباعتها حتى تاريخ إصدار الموسوعة وهي:

أ - «فلسفة الفن والاتجاهات النقدية عند المازني» تأليف اسماعيل مصطفى الصيفي ١٩٧٢ م وقد طبعت في فترة لاحقة.

ب - المازني شاعراً ١٩٧٤ م تأليف عبد اللطيف عبد الحليم/لم يطبع بعد راجع/أعلام الأدب في مصر/ إبراهيم المازني/حمدي السكوت ومارسدن جونز نشر مشترك/دار الكتاب المصري/دار الكتاب اللبناني ١٩٧٩ م.

(٢) أدب المازني/تأليف نعمات أحمد فؤاد طبعة ثانية مؤسسة الخانجي ١٩٦١ م القاهرة.

والدكتورة في مقدمة طبعتها الثانية تشير بوضوح إلى قضية بالغة الخطورة تتمثل في حادثة سطو واقتباس على فقرات مطولة من كتابها. وغير خاف أنها تشير بأصبع الاتهام إلى ناقد مشهور وضع كتاباً صغيراً على هيئة محاصرات حول المازني وهي مسألة جديرة أن تكون موضع دراسة متفحصة.

(٣) إبراهيم المازني/تأليف محمد مندور مكتبة نهضة مصر الطبعة الأولى عام ١٩٥٤ م.

(٤) راجع المقال في كتاب (في الثقافة المصرية) بعنوان - الهارب من الحياة - دار الفكر الجديد ١٩٥٥ م طبعة أولى بيروت وهي بقلم الدكتور عبد العظيم أنيس/والكتاب مجموعة مقالات نقدية بالاشتراك مع الناقد محمود أمين العالم

(٥) خير مثال على ذلك المقالة المركزة الهامة التي كتبها - مارون عبود - بعنوان - إبراهيم عبد القادر المازني ونشرها ضمن كتابه (جدد وقدماء) الطبعة الرابعة ١٩٧٢ م وفيها تدليل وتوضيح حول نفور المازني من الفلسفة الألمانية منها بالذات، مع استشهادات طريفة من كتاباته.

(٦) راجع - إبراهيم عبد القادر المازني الدوران في محاورة الذات - ضمن كتاب (عقدة أوديب في الرواية العربية) تأليف جورج طرابيشي دار الطليعة الطبعة الأولى ١٩٨٢ م.

(٧) هذه الافادات منقولة من التعقيب الذي كتبه - أكرم الميداني - كرد على المقالة النقدية ونشرتها مجلة «الآداب» البيروتية بعنوان - =

= المازني والهرب من الحياة - العدد الرابع ١٩٥٤ م. وهي مقالة لها قيمة موضوعية ووثائقية هامة.

(٨ و ٩) راجع مقالاً هاماً بعنوان - المازني وفنون الأدب - بقلم فاروق خورشيد/مجلة الهلال العدد الثاني ٢/١٩٧٦ م.

(١٠) راجع كتاب بعنوان - الأدب المعاصر في مصر - تأليف الدكتور شوقي ضيف دار المعارف طبعة ثانية/١٩٦١ م فصل بعنوان إبراهيم المازني ص ٢٦٤.

(١١) راجع كتاب بعنوان (أقطاب مصر بين ثورتين) تأليف الصحفي محمد السوادي/الفصل الخاص حول عباس محمود العقاد/كتاب اليوم العدد ١١٧/١١/١٩٧٦ م.

(١٢) المرجع السابق نفسه.

(١٣) يورد عامر العقاد في كتابه (لمحات من حياة العقاد) تفاصيل حادثة بين المازني والعقاد ما يفهم منها أن المازني لم يبلغ صاحبه بأن صاحب جريدة يبحث عنه للعمل معه والعقاد عاطل عن العمل (.. ولكن المازني لم يخبر صاحبه بذلك فقد يكون قد سهى عليه، ولكن العقاد كان يعتقد غير ذلك، وقد سمعته يقول لي في جلسة من جلسات معه في ليالي الشتاء سنة ١٩٥٩ بعد العشاء انه أخذ عليه تلك الحادثة..) ثم يقول عامر العقاد إنه (.. خلال سماعي العقاد يروي تلك الواقعة، بينه وبين صديقه، ألاحظ أن صوته كان يخفت كمن اخطره سياق الحديث العابر إلى ذكر حادثة كم تمنى ألا يذكرها..) إلى أن يصل إلى الاستنتاج المباشر من محصلة ذلك كله حين يقول (.. فاكتشفت من إطراقته المعهودة فيه أنه لم يغفر للمازني تلك الحادثة..).. راجع لمحات من حياة العقاد ص ٨٨ - ٨٩، دار الشعب الطبعة الثانية ١٩٧٠ م القاهرة.

(١٤) كتاب السوادي المشار إليه/مرجع سابق.

(١٥) المرجع السابق.

(١٦) راجع مقدمة كتاب ابراهيم المازني (حصاد الهشيم) القاهرة ١٩٢٤ م.

(١٧) تعطي الدكتورة نعمات أحمد فؤاد في كتابها حول (أدب المازني) تحليلاً مركزاً ومقارناً لهذه الاقتباسات وتطرح أمثلة استشهادية باللغتين العربية والإنجليزية، راجع الفصل الخامس من كتابها بعنوان - المازني المترجم - ص ٢٤٦ - ٢٧٠ مرجع سابق، كما يعطي الدكتور بدوي طبانة في كتابه (التيارات الأدبية المعاصرة في النقد الأدبي) تحليلاً مجملاً حول هذه الاقتباسات من جانب المازني والمجادلات التي أثيرت حوله في الصحف من جانب بعض الأدباء/ راجع الصفحات ٣٥٤ - ٣٦٠/مكتبة الأنجلو المصرية الطبعة الأولى ١٩٦٣ م.

ويوجد أيضاً كتاب نادر بعنوان (المعول) من تأليف - محمد علي حماد - وقد صدر سنة ١٩٣٤ م وقد سبق نشره على هيئة مقالات متفرقة في الصحف وهو يدين المازني بحدة بسبب هذه السرقات.

كما يشير رمزي مفتاح إلى مثل هذا الجانب عند تعرضه للمازني في كتابه الموسوم (رسائل النقد) المطبوع سنة ١٩٣٧ م.